مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٧) العدد (٦) حزيران (٢٠١٠)

صورة الخليج العربي في شعر السياب

د. محمد جواد حبيب البدراني
كلية التربية / جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد السياب واحداً من ابرز شعراء الانبعاث والتجديد في الشعر العربي الحديث فبتجديده بدأت مرحلة تحول جديد في القصيدة العربية معلنة ولادة نسق شعري أرسى دعائم قصيدة جديدة تختلف عما سبقها وتمهد لظهور مرحلة اخرى ذات ميزات خاصة، فلقد احدث السياب ثورة في شكل القصيدة ومضمونها وتقنياتها مما هيأ له الانطلاق لركب العالمية بما حمل شعره من هم كوني عام دون ان يجور ذلك على أصالته المحلية او يفقده ملامحه القوية المتجذرة فيه وهذا ما جعله من اكثر شعرائنا المحدثين استئثاراً بالدراسات النقدية مما يجعل كتابة موضوع جديد عنه امراً محفوفاً بمخاطر النمطية والتكرار، بيد ان طبيعة المبدع تجعل نصه قابلاً للتأويل والتأمل فالنقد في جوهره قائم على التأمل وأي تأمل جديد في نص السياب لابد ان يقود إلى رؤى جديدة ومنطلقات بكر لم تفترع بعد.

لقد أولت الدراسيات النقدية الحديثة المكان حيزاً مهماً من منظورها النقدي وهي لا تنظر اليه بوصفه حيزاً جغرافياً مادياً مجرداً "وانما كيفية الخلق الحسي للصورة بحيث يبرز الشاعر فيها كاحد الخلاق"[١] الذين يصنعون من المكان حيزاً جديداً بما يضفون عليه من خيالهم دون ان يفقدوه ملامحه الاصلية "لاستحالة بناء الحدث او الشخصية في مكان لا ملامح له"[٢] لان "وصف المكان ومكوناته... يعد في الوقت نفسه وصفاً للشخصية نفسها"[٣]. ومما لاشك فيه ان ابداع الشاعر يتجلى في صهر المكان بشكله المادي مع صورته المتخيلة ليخلق منه صورة جديدة تتضح فيها معالم ابداعه التي تجعل للمكان دلالة "تتسع بما ترتبط به من سياقات نفسية واجتماعية تحول المكان وحوادثه الى مكان مجازي"[٤] على وفق الصورة التي صنعتها مخيلة المبدع.

ان الخليج العربي بوصفه مكاناً واقعياً كان له نصيب وافر في شعر السياب واذا كانت الاعمال الادبية "لا تنجح الا اذا بنيت على امكنة محلية معروفة ومعاشة"[٥] فالسياب نجح في ان يبني عدداً من نصوصه على هذا المكان ليجعله مع غيره من الامكنة الشعرية (كجيكوروبويب) "رموزاً كونية تتعمق دلالتها وتتكشف محمولاتها الابداعية يوماً بعد يوم"[٦].

ان البحث يقوم على فكرة وجود صورتين مختلفتين بل متناقضتين للخليج العربي في شعر السياب ويتحدد مسار هاتين الصورتين بحسب وصفه النفسي وطبيعة الظروف الطبيعية التي يعيشها.

١- الخليج العربي مكاناً اليفاً

بعد المكان اليفاً اذا شعر الانسان نحوه بنوع من الالفة وتشبع به ومارس فيه رغباته وطقوسه فالمكان الاليف هو "المكان الذي مارسنا فيه احلام اليقظة وتشكل فيه خيالنا"[٧] ولقد كان السياب شاعراً عاش على مقربة من شواطئ الخليج العربي وقضى طفولته في بيت الطفولة بقضاء ابي الخصيب على مقربة من شواطئ الخليج العربي ومن المعروف ان اهل ابي الخصيب يرتبطون مع ابناء الخليج العربي بعلاقات نسب ومصاهرة فضلاً عن تشابه الكثير من العادات والتقاليد. وقد عاش السياب في بيئة قروية زراعية في جيكور الغافية على احضان النهر والمعتمدة في حياتها على المد والجزر الذي هو عماد اقتصادها. يقول السياب :

في ابتسام الرياض للمد والجز ... رِ لطوفان اعذب النغمات
يحملان الحديث عن مرقص البحـ ... ـرِ وحور الشواطئ اللاعبات[٨]

ان السياب القروي يشعر بفضل البحر عليه بمده وجزره الذي يجعل مزارع ابي الخصيب معتمدة عليه في السقيا، كما انه يغذي روحه باروع الصور الرومانسية المفعمة بمناظر حوريات يتراقصن حوله ومع أمواجه في جو رومانسي محبب يملؤه الخيال وتقوده العاطفة المرهفة. ويقول ايضاً :

تنام على النهر الجميل ضفافه ... وبالماء تدلي مائجات الغدائر
كموجة بحر قيدتها سلاسل ... من النور مثل العسجد المتناثر[٩]

ان جماليات الصورة التي يرسمها للبحر بامواجه المتكسرة تحيل الى صورة عذراء تطوي شعرها وتنشره بدلال فضلاً عن صورة (موجة تقيدها سلاسل من نور) التي تعاملت مع المجرد لا المحسوس وانبنت على لامنطقية على المستوى الحياتي لا الشعري لتشكل حالة افراغ لشحنة رومانسية البست البحر صورة عروس تقيد شعرها تارة وتطلقه اخرى مما يشي بصورة محببة للبحر ويقول :

وانـــــــت يـــــــا بويـــــــب
اود لـــو غرقـــت فيـــك القـــط المحـــار
اشـــــــــــيد منـــــــــــه دار
يضـــيء فيهـــا خضـــرة الميـــاه والشـــجر
مـــــا تنضـــــح النجـــــوم والقمـــــر
واغتـدي فيـك مـع الجـزر إلـى البحـر[١٠]

ان صورة الخليج العربي هنا ارتبطت بارتفاع الماء في نهره المحبب ورمزه الاثير (بويب) فهو يعود مع الجزر الى ذلك البحر ليبدأ الرحيل في جسد المعشوق ويتم دخول الانساني في الكوني فهو يشعر بحب جارف الى البحر ممتزج بمضامين اخرى بالعودة الى احضان اهله الذين يرتبطون بالخليج كما تصب انهار البصرة فيه فهو عندما يريد العودة مع الجزر الى اعماق الخليج العربي يؤمن انه "لم يعد الخليج مجرد خليج بل اصبح شيئاً اقرب الى نهر الحياة الذي يحمل الناس جميعاً... الى عالم الغد"[١١] الجهيل المفعم بالحرية والنقاء والخير الوفير ولقد ابدع الشاعر في المزج بين الخضرة والضوء فكلاهما يحيل الى دلالات التفاؤل والتسامي والاحساس بالديمومة[١٢] ويقول :

هاتيـك اضـواء المرافـئ وهـي تلمـع مـن بعيـد
تلـــــك المرافـــــئ فـــــي انتظـــــار
تتحـرق الاضـواء فيهـا مثـل اصـداء تبيـد[١٣]

لازال البحر يشكل حلما رومانسياً في نظر الشاعر فهو يراه بوابته الى العالم (فمقابل الصحراء التي تمثل المكان الشاسع من اليابسة نجد البحر الذي يمثل المتسع المائي، يحتضن

جدل الاتصال والانعزال المتلبسة بثنائية البداية والنهاية"[١٤] فهو بداية رحلته الى المجهول وهو نهاية معاناته، ويقول السياب في قصيدته (افياء جيكور) :

افيـــاء جيكـــور نبـــع ســـال فـــي بـــالي
ابـــــلّ منهـــــا صـــــدى روحـــــي
في ظلها اشتهي اللقيا واحلم بالاسفار والريح
والبحر تقدح احداق الكواسج في صخابه العالي
كانهـــا كســـر مـــن انجـــم ســـقطت[١٥]

ان صورة البحر المحبة لازالت هي تغذي خيال الذات الشاعرة حتى ليربط بين جيكور مثاله المحبب والبحر مفتاح الاسفار ولعل من الطريف ان الشاعر بسبب نظرته المحبة يشبه احداق الكواسج بانجم متساقطة على الرغم من الهوة بين جمال النجوم وما تثيره الكواسج من رعب للبحارة فضلاً عن جمالية الجناس الناقص المقلون (قدح، حدق) والجناس بين (بال، أبلّ) وما شكلته من ايقاع صوتي مضاف عزز من تظافر الايقاعين الداخلي والخارجي للقصيدة، ولعل نقطة التغيير في صورة الخليج العربي الاليفة تبتدئ بقوله :

البحـــر مـــا كـــان ســـوى جـــدول ينيـــر فـــي الليـــل ســـبيل الرعـــاة
فمـــا دهـــاه اليـــوم حتـــى غـــداً ملحاً اجاجاً بعد عذب فرات[١٦]

فحين ابتدأ وعي الذات الشاعرة كانت له علاقة ضدية عموماً مع المكان فهو يقول "يحار المرء وهو يواجه الزمان والمكان هذين العدوين اللذين يلاحقانه حيثما ولى"[١٧] ومن هنا يبتدئ مفتاح صورة الخليج العربي السلبية.

٢- الخليج العربي مكاناً معادياً

ان المكان الاليف قد يتحول الى مكان معادٍ بفعل علاقة الذات المبدعة بالمكان "لان الغالب في علاقة الشخصيات بمنازلها صفة التذبذب التي تتراوح بين نفور وحب بين الاحتماء بها والهرب منها ففي لحظات السعادة تتآلف الشخصيات بالاماكن وفي لحظات البؤس تضطر الى معاداتها[١٨].

لعل بداية الصورة السلبية المعادية للخليج العربي في شعر السياب كانت عندما غادر ايران بسفينة شراعية – بعد ان كان قد هرب اليها خشية الملاحقة السياسية، وتوجه الى الكويت في رحلة مضنية تعرض خلالها لخطر الغرق في مياه الخليج العربي وقد زلزلت تلك الرحلة كيانه النفسي زلزلة عنيفة واسهمت إسهاماً بارزاً في تعميق احساسه بالوطن وصعوبة فراقه والغربة عنه، وقد صور السياب احداث تلك الرحلة في قصيدته (فرار عام ١٩٥٣) التي يقول فيها :

في ليلة كانت شراعينها
فحماً وكانت ارضها من لحود
ياكل من اقدامنا طينها
تسعى الى الماء
الى شراع مزقته الرعود
فوق سفينٍ دون اجواء
في الضفة الاخرى... يكاد العراق
يومئ يا اهلاً بابنائي
امن بلادي هارب... أي عار
وارتعش الماء وسار السفين[١٩]

يبتدئ النص بصورة قائمة تنبئ عن ما في عنصر اللون من اثر يتشكل في جسد القصيدة ليولد دوالاً تتناسل في سياقها الخاص فالشرابين تشعر باللون الاحمر المشرق لكن الشاعر استطاع ان يغير مرجعيته محولاً اياه الى دالة قاتمة ولكي يكتمل المشهد القاتم

ومأساوية الحدث جعل الارض لحوداً بما توحيه من تشاؤم وفزع لتكتمل الصورة الدرامية مع الاشرعة الممزقة ومع صورة الوطن الذي يشعر الشاعر انه يعاتبه على تركه اياه وهو يرى الهوة تتسع بينه وبين وطنه بعد ان اضحى الخليج حاجزاً نفسياً وطبيعياً يشعره بالضياع والتمزق بين الرغبة في البقاء بالوطن والاضطرار للابتعاد عنه.

لقد تعرض السياب في غربته تلك الى شتى الضغوطات النفسية في دار جمعت شتى المشارب مما زاد من احساسه بالضياع وشعوره بالغربة التي عززت كون الخليج في عينه حاجزاً مكانياً يبعده عن اعز الاشياء الية ويتحول من رمز للعطاء والخير والرزق الى رمز للخوف من المجهول والمستقبل القائم فالبحر بطبيعته "ليس رمزاً ابدياً مطلقاً للخوف والرهبة لكنه يكون كذلك عندما يشحن الشاعر صورة البحر بمشاعر خاصة تستثير مشاعر الخوف"[٢٠] والبعد والترقب وانتظار المجهول.

ان قصيدة السياب "غريب على الخليج" كانت اكثر قصائده تعبيراً عن الاحساس بهذا الحاجز المكاني النفسي الذي حال بينه وبين العراق اذ يقول :

وعلـــــى الرمـــــال علـــــى الخلـــــيج
جلـس الغريـب يسـرح البصـر المحيـر فـي الخلـيج
ويهـد أعمـدة الضـياء بمـا يصـعد مـن نشـيج
اعلـى مـن العبـاب يهـدر رغـوة ومـن الضـجيج
صـوت تفجـر فـي قـرارة نفسـي الثكلـى "عـراق
كالمـد يصـعد، كالسـحابة، كالـدموع الـى العيـون
الـــــريح تصـــــرخ بـــــي عـــــراق،
والمـوج يعـول بـي عـراق، عـراق، لـيس سـوى عـراق
البحـر اوسـع مـا يكـون وانـت ابعـد مـا تكـون
والبحـــــر دونـــــك يـــــا عـــــراق[٢١]

يتلمس المتلقي منذ البدء ان الشاعر خلع صورة الصحراء على الخليج العربي منذ مطلع القصيدة ويعود ذلك الى انه "يحمل في داخله الصحراء، او صحراءه، بعد ان سكنته الغربة"[٢٢]

واضحى الخليج العربي هو الفاصل المكاني الممثل لهذه الغربة اذ يتحتم عليه ان يتجاوزه ليصل الى وطنه واذا كان المكان الشعري يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع الى ما قد يتناقض مع هذا الواقع فان خيال السياب قاده الى ان يجعل "الخليج هو الصحراء"[٢٣] القاحلة المميتة التي تفصله عن العراق، وغير خاف الحاح الشاعر في النص على الاكثار من التضعيف وحروف المد وتكرار الراء وهو صوت بطبيعته يفيد الترجيع، وهذه كلها عوامل ايقاعية ذات دلالات خاصة تسهم في منح النص ايقاعاً شجياً ينضح حزناً وينساب في تواتر كئيب. ويستمر في القصيدة ذاتها فيقول :

فلتنطفي يا انت يا قطرات، يا دم، يا نقود
يا ريح يا أبراً تخيط لي الشراع – متى اعود
الى العراق؟ متى اعود؟
يا لمعة الامواج رنحهن مجداف يرود
بي الخليج، ويا كواكبه الكبيرة... يا نقود
ليت السفائن لا تقاضي راكبيها عن سفار
اوليت ان الارض كالافق العريض بلا بحار
مازلت انقص يا نقود، بكن من مدد اغترابي
مازلت اوقد بالتماعتكن نافذتي وبابي
في الضفة الاخرى هناك فحدثيني يا نقود
متى اعود؟... متى اعود[٢٤]

لعل هذه الابيات تمثل ذروة حنين الشاعر الى وطنه واهله ورسمت اغترابه النفسي والروحي والمكاني ويتضح فيها "الحديث عن النقود بصورة ملحة فهي وسيلة الشاعر الى تحقيق حلمه بالعودة الى ارض الوطن، كما ان فيها ذلك المزج الرائع بين التشوق للوطن والتشوق للحبيبة"[٢٥] التي تماهت مع الوطن وامتزجت به ليصبحا كلاً واحداً لا يمكن ان يتجزأ.

ان صورة (الخليج العربي) في قصيدة (غريب على الخليج) تمثلت بغول هائل يفترس احلام الشاعر ويعصف بها ويرميها ادراج الرياح فعبور الخليج يتطلب مالاً يرضي البحارة ان ينقلوه الى الضفة الاخرى وهو عارف انه لا يمكنه ان يعود الى وطنه الا خلسة وان لا عبور له الا بين دراعي هذا الغول (الخليج) حينئذ يصل به الامر الى حد الاستسلام واليأس من العودة الى العراق فـ "ياخذ اسم العراق بالتفجر الصوتي بقرار عميق ينشره الموج في اصداء متتالية تعكس درجة عالية من التفاعل الزاخر بين الايقاع النفسي والصوتي... وتقوم مفارقة التقارب النفسي الشديد من الوطن مع البعد المكاني عنه بتوليد حس عارم بالغربة واليأس والانقطاع"[٢٦] فيقف على شواطئ الخليج العربي في الكويت نادباً وطنه بايقاع شجي يائساً من العودة اليه مستسلماً لقدره بصورة غريبة تجعله وكانه آمن باستحالة تلك العودة فيقول :

واحسرتاه فلن اعود الى العراق
وهل يعود... من كان تعوزه النقود؟ وكيف تدخر النقود
وانت تأكل اذ تجوع؟ وانت تنفق ما يجود
به الكرام، على الطعام
فلتبكين على العراق
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك دون جدوى للرياح وللقلوع[٢٧]

وتتحقق هنا الثنائية المتضادة بين النقود والعراق فالنقود تقف حائلاً بين الشاعر ووطنه وكانها تشكل معادلاً موضوعيا للخليج العربي وتوازيه دلالياً ذلك ان "العراق يحققه رنين قطرات اخرى... نقود... لمعة الموج تقول نقود... كواكب الخليج نقود... وعند كل رنة يرد الصدى... ود فتصبح اعود... العراق لفظة تفتح مغالق النفس المتناهية بين جمال الماضي وبؤس الحاضر ولكن لفظة نقود تفتح باب العراق المغلق... ولكن لا عودة لانه لا نقود... القصيدة اذن تموج النفس في صعود يتلوه هبوط (الماضي، الحاضر، الامل بابان مغلقان يفضي احدهما الى الاخر ولا تجدي القوة السحرية البدائية امامها شيئاً لان الواقع اقوى"[٢٨] من

احلامه بالعودة الى احضان الوطن والامل اضحى بعيد المنال واضحت ذات الشاعر المبدعة موزعة بين اليأس والامل.

ويتحقق الحلم الذي كان يظنه السياب مستحيلاً لكن تلك الغربة خلفت لنا نصاً آخر أجمع الدارسون انه من اروع قصائد السياب ان لم يكن اروعها على الاطلاق وهو قصيدة (انشودة المطر) التي يقول فيها :

وعبر امواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار
كانها تهم بالشروق
فيسحب الليل عليها من دم دثار
اصيح بالخليج (يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى)
فيرجع الصدى
كأنه النشيج
يا خليج
يا واهب المحار والردى
.....
وينشر الخليج من هباته الكثار
على الرمال، رغوة الاجاج والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار[٢٩]

وعلى الرغم من تعدد القراءات والتأويلات لهذه القصيدة مما جعلها من اكثر قصائد الشعر العربي الحديث مثاراً للنقد فاننا نقف هنا عند نظرة السياب فيها الى الخليج العربي فهو يراه بصورة قاتمة تشي بحالته النفسية مما ينتج لنا ثنائية ضدية جعلت التضاد خصيصة لعنصر

جمالي في العمل مبني على الصراع المرير بين الامل بالغد المشرق والواقع المقيت المرير وتتجلى قوة الخيال عند السياب في استحضار الجانب الفردي من الصور والتجارب، وفي الغوص الى موضوعية الاشياء والنفاذ الى اعماقها والقبض على الافكار المهمة في التجربة ولملمتها في صور صغيرة تكبر شيئاً فشيئاً وتتسع لتكون في النهاية صورة متناسقة نجحت الذات المبدعة في جعلها خطاباً تشكيلياً يعتمد الصورة قبل الكلمة لحالة الغربة والضياع فالسواحل التي تهم بالشروق لكنها سرعان ما يدثرها الدم والخليج الذي كان يهب اللؤلؤ – مصدر العيش الرئيس لاهل الخليج العربي قبل ظهور النفط ثم اصبح – في نظر الذات الشاعرة – لا يهب الا الردى والحرمان والمحار الاجوف... ولا يبصر الجالس على ساحله النائي عن بلده غير عظام الغرقى التي يرميها ساخراً على شاطئه... انها عظام الفاشلين في عبوره فشل الذات الشاعرة في العودة للبلاد فصورة "موت البائس الذي قذفه الخليج الى الساحل هو موت الشاعر على سيفه في الوحشة والغربة والضياع"[٣٠]. وقد كانت قصيدتا (غريب على الخليج) و (انشودة المطر) خير تعبير عن صورة الخليج مكاناً معادياً اذ "صورتا احساسه الذاتي بغربة قاسية فريدة... وحين اخذ يتأمل في طبيعة تلك الغربة... ازداد احساسه بالعراق – عراق الطفولة وعراق البؤس والجوع، وإقترن الاثنان في نفسه اقتراناً شعورياً وفنياً... شعور مستبد طاغ بالطبيعة العراقية والذكريات العراقية... وكبرت صورة العراق في نفسه حتى طردت كل صورة اخرى، أي كبر الاحساس بالوطن وبالرابطة الوطنية القومية[٣١].

ولم تقتصر الصورة السلبية المعادية للخليج العربي على مرحلة الغربة الاولى حينما حل في الكويت هارباً من المطاردة السياسية وخطر الاعتقال بل ظلت هذه الصورة تلازمه في غربته الثانية (غربة المرض والعلاج) اذ ظل يتذكر ايام غربته الاولى في الكويت فيقول في قصيدته (ليلة في لندن) :

ومن افق المنائر في الكويت وزرقة البحر
اهاب فرش جفني بالنعاس رنين اكواب
بماء البصرة الرقراق تملأ ثم تسقيني
.....
غريباً كنت حتى حين احلم لست في جيكور

ولا بغـــداد امشـــي فـــي صـــحارى قلبـــي المســـعور
يريـد المـاء فيهـا (مـاء... ايـن المـاء؟) وهـي تريـه افواهـا
علـــى افاقهـــا الربـــداء ظمـــأى تشـــرب الـــديجور
فلا تروى أأقضي العمر في صحراء، في ليل من العطش[٣٢]

ولعل اول ما يلفت الانتباه هنا ان الذات الشاعرة ما ان تتذكر البصرة حتى تقفز الى ذهنه صورة مائها الذي يقتله الظمأ اليه وهو بذلك يستعيد صورة اسلافه فمن المعروف "ان العرب اذا ذكروا ديارهم كان اول ما يشتاقون اليه ويتمنونه هو ماؤها وشرابها"[٣٣] والمتأمل في النص يرى صورتين متناقضتين للماء : ماء البصرة الرقراق الصافي الذي يذكره بالوطن ويرمز للنقاء والطهر والسعادة في احضان الاهل والاحبة وماء الخليج الاجاج الذي لم يعد مصدراً لرزق الصياد والبحار والغواص بل اضحى حاجزاً وصحراء تفجر في نفسه لواعج الالم ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان ثنائية (الماء – الصحراء) ظاهرة عامة في شعر السياب لازالت بحاجة الى المزيد من اهتمام الدارسين.

لقد فجرت الغربة الحنين في شعره بكل نوازع الشوق للوطن واصبح ذلك الحنين وتراً جريحاً في كل قصائده فطيف العراق ما فتئ يغازل جفنيه ويداعبه، بل ويؤرقه في كثير من الاحيان واصبح لا رجاء له الا الخلاص من الغربة التي ابعدته عن الزوجة والابناء فيهتف ملء فيه في قصيدته (اقبال الليل) :

يـــــــا ليـــــــل ضـــــــمخك العـــــــراق
بعبيـــــر تربتـــــه وهـــــدأة مائـــــه بـــــين النخيـــــل
انـي احسـك فـي الكويـت وانـت تثقـل بالاغـاني والهـديل
.....
يـــــا ليـــــل ايـــــن هـــــو العـــــراق
ايـــن الاحبـــة؟ ايـــن اطفـــالي؟ وزوجـــي والرفـــاق
يـــا ام غـــيلان الحبيبـــة صـــوبي فـــي الليـــل نظـــرة
نحـــو الخلـــيج تصـــوريني اقطـــع الظلمـــاء وحـــدي[٣٤]

لقد اضحى الشاعر يهرب من واقعه المرير الى الحلم... فهو يحلم بان يفيق من المرض ليعود الى زوجته الصابرة واطفاله المنتظرين يحلم بان يعبر الخليج – ذلك الحاجز المقيت ليعود الى احضان (الاهل – الوطن) اذ ان "اشتداد الازمة النفسية في اعماق السياب حدت به الى التعامل مع العالم الخارجي برؤية محكومة بمعاناته انساناً يستبد به وحش ضار يجعله... ينظر الى الحياة لا بصفتها حالة مفتقدة بل حلماً متبدداً داخل محجري عينيه"[٣٥] ومن هذه النقطة بالذات يمكن فهم النص فهو يرى البصرة في الحلم ويحول الخليج العربي دون الوصول اليها وهذه الصورة الواقعية لحياته العائلية في البصرة هي التي دفعت الذات المبدعة الى تكثيف العناصر وتوخي الدقة في اثارة المضامين الانسانية ولكي تكتمل مأساوية المشهد الشعري ادخل صورة الليل بما توحيه من سكوت وخوف وترقب وشدد على لفظة (الظلماء) التي تعطي اللوحة سوداوية مضافة فاللون عند السياب موضوع جمالي "يدخله عنصراً من عناصر البناء في القصيدة معبراً عن الحركة والامتداد والتنوع تارة وعن التشخيص وتجميد الحركة تارة اخرى"[٣٦] وقد نجحت هذه الصورة في اثارة شحنة عاطفية لدى المتلقي، ويقول السياب في قصيدته (الى زوجتي الوفية) :

في غد تمضين صفراء اليد
لاهوى او مغنم نحو العراق
وتحسين باسلاك الفراق
شائكات حول سهل اجرد
مدها ذاك المدى ذاك الخليج[٣٧]

ان صورة الخليج لازالت قائمة في النص فهو اسلاك شائكة تحجزه عن وطنه وتبعده عن احبته وتتركه مثقلاً بذلك القلق العاطفي... وغربة الجسد بالبعد والروح بالمرض، التي اندفعت بتجربته الى احساس عاش من خلاله في الم مستمر ويقول السياب :

مريضاً كنت تثقل كاهلي والارض احجار
احن لريف جيكور

واحلـم بـالعراق وراء بـاب سـدت الظلمـاء
بابـا منـه والبحـر المزمجـر قـام كالسـور
علـــــــــــى دربـــــــــــي[٣٨]

ان حدة التناقض واضحة في النص بين جيكور رمز الطهر والبراءة والنقاء والطفولة والخليج العربي (البحر) رمز كل ما هو قاس ومؤذ فجيكور تشكل حنيناً ممتزجاً مع الحنين الى الام والطفولة المحببة والارض الطهور، في حين يمثل الخليج ذلك الحاجز الذي يفصله عنها وهي عالمه الامثل الذي لم يعد واقعاً مادياً محسوساً فقط بل تدثر بغطاء الرمز فالعراق كله يتمثل بهذا العالم الذي هجره مضطراً والذي تشير اليه جيكور في حين يشير (الخليج العربي) الى وحش مزمجر مفترس يعصف بالاحلام ويقف سوراً امام الشاعر الذي لم يعد يحلم الا بالعودة لوطنه لينعم بالحياة بين اهله واحبته واطفاله ولكن انى له ذلك والمرض يضطره للعلاج في الكويت ويحول الخليج العربي بينه وبين قريته فيصبح الخليج رمزاً للامال المحطمة على صخرة واقع مرير لا يرحم... انها ماساة الواقع وحين لا تجد الذات المبدعة في الواقع حلاً تهرب للحلم الذي يؤدي "وظيفة هامة وهي التصدي للمشكلات المعلقة والتي لم يتوافر الفرد على ايجاد حلول لها او تصريفها بصورة مرضية اثناء الواقع"[٣٩] فتصبح احلام اليقظة ديدنه الذي لا ينفك ملازماً اياه يقول السياب

وكـم عبـر الخلـيج الـىّ والانهـار والترعـا
يدغـدغ بـيض اشـرعة يهـيم وراءهـا القمـر
وينشـــــــج بينهـــــــا المطـــــــر
واوغـل فـي شـعاب البـرق، يرجـف كلمـا لمعـا[٤٠]

ولعل بعد السياب عن اطفاله كان محور هواجسه التي تؤرقه وتجعله نكداً فقد أجمع دارسوه انه كان شديد التعلق باطفاله والقلق على مستقبلهم لذلك كان طيلة رحلة العلاج في الكويت يحلم بتجاوز الحاجز المكاني (الخليج العربي) وينتظر المعجزة التي تعيده الى اطفاله :

ويـــــا حـــــديثك عـــــن الاء يلـــــذعها

بعـــدي فتســـأل عـــن بابـــا (امـــا طابـــا)
أكـــــــــــــاد اســـــــــــــــمعها
رغـــم الخلـــيج المـــدوي تحـــت رغوتـــه
اكـــــاد الـــــثم خـــــديها واجمعهـــــا
فـــي ســـاعدي كـــاني اقـــرع البابـــا[٤١]

انه يتخيل سماع صوت ابنته على الرغم من الفاصل المكاني – الخليج العربي – الذي يسد منافذ عينيه لكنه لا يستطيع اغلاق منافذ قلبه فالغربة عنده تعني "الانقطاع عن الوجود الفعلي في الوطن كما تعني في الوقت نفسه تمدداً داخلياً لهذا الوجود بذاته، وحين يصبح وجود الوطن داخلياً تنشط حركة امكنة عدة"[٤٢] لذلك فهو يحتضن الوطن عبر احتضان طفلته.

ولعل ذروة الموقف العدائي للخليج العربي تصل في قوله :

اوليت ان الارض كالافق العريض بلا بحار

ان بعده عن بلده جعله يشعر بالانقطاع والاجتثاث فلا وطن ولا شفاء ولا من يفتح له قلبه مما جعله يشكل صورة للبحر هي صورة الصحراء ذاتها فهو حاجز يبعده عن الاحبة يتمنى ازالته ومحوه.

لقد كانت صورة الخليج العربي عند السياب اليفة جميلة محببة في مرحلته الشعرية الاولى – وهذا شأن الرومانسيين – لكنها صارت مكاناً معادياً يبعده عن اهله واحبته ايام المرض والغربة مما يؤكد ان الحالة النفسية والصحية هي التي شكلت مناحي تلك الصورتين لكن الصورة الأليفة قصيرة من بداياته الشعرية المتأثرة بالرومانسيين في حين شكلت الصورة المعادية محور تجربته الشعرية التي شهدت ولادة انضج قصائده.

هوامش البحث ومصادره

(١) اشكالية المكان في النص الادبي : ياسين النصير، ط ١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٣٩٤.

(٢) البناء الفني لرواية الحرب في العراق : عبد الله ابراهيم، ط ١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٢٧.

(٣) الرواية : ياسين النصير، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٩.

(٤) الموصل فضاءً روائياً : د. ابراهيم جنداري، مجلة الاقلام العدد (٧ – ٨) لسنة ١٩٩٦، ص ٥٥.

(٥) الحد : ياسين النصير، مجلة الاقلام، العدد (١١ – ١٢) لسنة ١٩٨٩، ١٨٧.

(٦) المكان ودلالته في شعر السياب : محمد طالب البجاري، رسالة ماجستير غير مطبوعة، كلية التربية، جامعة البصرة، ١٩٩٨.

(٧) جماليات المكان : غاستون باشلار : ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ٧.

(٨) ديوان السياب، بدر شاكر السياب، ط ١، دار العودة بيروت، ١٩٧١، ١٤٣/٢.

(٩) المصدر نفسه ١٢٠/٢.

(١٠) المصدر نفسه ٤٥٥/١.

(١١) حركات التجديد في الادب العربي : د. عبد العزيز الاهواني واخرون، دار الثقافة القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢١٧.

(١٢) اللغة واللون : د. احمد مختار عمر، دار البحوث العلمية، الكويت، د. ت.، ص ١٨٥.

(١٣) ديوان السياب ٩٤/٢.

(١٤) الفضاء الشعري عند السياب: لطيف محمد حسن، رسالة دكتوراه، كلية الاداب، جامعة الموصل، ١٩٩٤، ص ٩٢.

(١٥) ديوان السياب ٩٠/١.

(١٦) ديوان السياب ٢:١٣٤.

(١٧) رسائل السياب : ماجد السامرائي، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥٨.

(١٨) الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا/٢٣٧.

(١٩) ديوان السياب ٢٠١/١ – ٢٠٢.

(٢٠) الشعر العربي المعاصر قضاياه الفنية وظواهره الموضوعية، ط ٢، عز الدين اسماعيل، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

(٢١) ديوان السياب ٣١٧/١.

(٢٢) كتاب المنزلات (منزلة القراءة) : طراد الكبيسي، ط ١، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٤١.

(٢٣) انتاج ما انتج (مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية) : د. مالك المطلبي، بحوث المربد السادس، بغداد، ١٩٨٦، ص ٤٠.

(٢٤) ديوان السياب ٣٢١ – ٣٢٢.

(٢٥) شعر بدر شاكر السياب دراسة فنية وفكرية : حسن توفيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. ت.، ص ١٨٥.

(٢٦) اساليب الشعرية المعاصرة : د.: صلاح فضل، دار الاداب، بيروت، ١٩٩٥، ص ٩٧.

(٢٧) ديوان السياب ٣٢٣/١.

(٢٨) بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره : د. احسان عباس، ط ٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٠٨.

(٢٩) ديوان السياب ٤٧٧/١ – ٢٨٠.

(٣٠) بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره"٢١١.

(٣١) المصدر نفسه/٢١٧.

(٣٢) ديوان السياب ٦١٨/١ – ٦١٩.

(٣٣) الماء في الادب العربي : د. جميل سعيد، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٦٠، ص ٧.

(٣٤) ديوان السياب ٧١٧/١ – ٧١٨.

(٣٥) البنينة الاسطورية في شعر السياب : معين جعفر محمد، الاقلام العدد الرابع، ١٩٩٩، ص ٢٤.

(٣٦) الرسم بالكلمات في شعر السياب : خيري صباح الدين الحيدري، رسالة ماجستير غير مطبوعة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠١، ص ١٣٠.

(٣٧) ديوان السياب ٦٥٠/١.

(٣٨) المصدر نفسه ٢٦٩/١.

(٣٩) ابواب العقل الموصدة ٠باب النوم والاحلام) : د. علي كمال، ط ٢، الدار العربية، بغداد، ١٩٩٠، ص ٦٠٨.

(٤٠) ديوان السياب ٦٧٨/١.

(٤١) المصدر نفسه ٧٠٩/١.

(٤٢) جماليات المكان : اعتدال عثمان، بحوث المربد السادس، بغداد، ١٩٨٦، ص ٥١.